الحركة الإسلامية

obeikan.com

obeikan.com

لعل أكثر ما يهمنا من كتاب خريف الغضب هو هذا الجزء الذي أعطاه هيكل اسم «الإسلام السياسي».

ولعل هيكل حينما يكتب عن الإسلام السياسي فإنه يخضع لمجموعة من العوامل المتداخلة.

١- إن هيكل كمثقف علماني - فإنه يخضع التجربة الإسلامية للمعيار الغربي - وبالتالي فهو لا يملك القدرة على فهمها.

٢- إن هيكل كمفكر مرتبط بالمدرسة الاستعمارية فإنه بالطبع يعادي الاتجاه الإسلامي.

٣- إن هيكل وبما أنه ضحل الثقافة في إطار الفكر العلماني فإنه فضلاً عن علمانيته وارتباطه بالاستعمار الثقافي فإنه جاهل.

٤- إن هيكل قد ارتبط في الستينيات بالتبرير للتجربة الناصرية. وبالتالي فهو مسؤول عما عانته الحركة الإسلامية في الخمسينيات والستينيات.

وبالتالي فهو ليس خصمًا ثقافيا أو سياسيا للحركة الإسلامية فحسب، ولكنه يرتبط بعداء شخصي مع الحركة الإسلامية أيضًا.

وهكذا فإننا أمام مثقف علماني استعماري جاهل وحاقد.

وهكذا فإن هيكل وبحكم هذا كله لا يملك أن يقدم رؤية جيدة للحركة الإسلامية.

على أن هناك فكرتين رئيسيتين ينبغي الوقوف عندهما.

يقول هيكل: «في مناخ مثقل بالمتناقضات وأسباب الشك والحيرة والقلق، وتضارب في القيم الاجتماعية والثقافية، وتخبط في السياسات الاقتصادية والاجتماعية. كانت العودة إلى الدين طلبًا لليقين حركة طبيعية».

وهكذا يقول هيكل إن تنامي المد الإسلامي في مصر كان رد فعل لظروف معينة.

وهذه مقولة شديدة الخطورة تروج لها المدرسة الاستعمارية دائمًا في محاولة مستمرة لتطويق الحركة الإسلامية باتهامها بأنها رد فعل.

وفي الحقيقة فإن المدرسة الاستعمارية حين ترفع هذه المقولة. فإنها تضع نفسها في مأزق وتصبح مكشوفة وتثير السخرية.

فإن أي مثقف أو حتى نصف مثقف يستطيع أن يدرك مدى أصالة الحركة الإسلامية فهي حركة تضرب بجذور عميقة في تاريخ وجغرافيا مصر والعالم العربي والإسلامي بل والعالم كله.

وهكذا فإن هيكل حينما يردد هذه المقولة فإنه يثير سخريتنا وضحكنا أكثر مما يثير استياءنا.

إن الحركة الإسلامية هي الحركة السياسية الوحيدة في العالم العربي التي لم تنقطع يومًا منذ بعثة الرسول الكريم ﷺ، ولقد خاضت معاركها دائمًا وعبر مراحل تاريخية طويلة من أجل الحرية والعدل والمساواة وإزالة كافة أشكال الطغيان السياسي والاقتصادي والاجتماعي من فوق الأرض.

وخاضت معاركها حديثًا ضد الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي ممثلاً في الرأسمالية والإقطاع.

ولقد كانت هذه الحركة دائمًا هي ضمير الأمة، وهي طليعتها وهي أملها.

تصدت تلك الحركة ولأن هذا هو قدرها الذي لا مناص منه فضلاً عن أن دينها هو المستهدف وأمتها هي الضحية.

خاضت تلك الحركة معاركها ضد الحملة الفرنسية (محمد كريم -عمر مكرم).

وضد الإنجليز من حملة فريزر (عمر مكرم)..

وضد الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي متمثلاً في نظام حكم محمد علي وما رافقه من إقطاع زراعي بشع (جمال الدين الأفغاني - عبد الله النديم - عرابي - مصطفى كامل - محمد فريد - عبد العزيز جاويش ثم حسن البنا).

وضد الصهيونية (الإخوان المسلمون - سيد قطب - أحمد المحلاوي - حافظ سلامة).

وضد استبداد عبد الناصر والسادات:

سيد قطب - أحمد المحلاوي - حافظ سلامة - صالح سرية - محمد عبد السلام.

- يلاحظ في هذا الصدد:

- معارك الإخوان ضد إسرائيل في ١٩٤٨.

- معارك الإخوان ضد الإنجليز ١٩٥١ (أحمد المثيسي - عمر شاهين).

- معركة السويس الشعبية بقيادة الشيخ حافظ سلامة وجمعية الهداية الإسلامية.

وهكذا كانت الحركة الإسلامية هي الأصل دائمًا ولم تنقطع يومًا.

وانقسمت القوى السياسية دائمًا في المنطقة إلى معسكرين:

١- المعسكر الإسلامي، وهو يملك تناقضًا جوهريا مع الاستعمار والصهيونيه ويطرح الكفاح الشعبي المسلح كشعار. ويمارس ذلك الكفاح كما سبق أن وضحنا. ويناضل ضد الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي والاجتماعي.

لاحظ الانتفاضات الفلاحية بقيادة عناصر الإخوان ضد الإقطاع في الريف المصري ١٩٥١.

(عناني عواد شهيد كفور نجم - انتفاضة بهوت - ميت فضالة).

لاحظ دراسات العناصر الإسلامية والخاصة بالتصدي للاستبداد السياسي.

محمد فتحي عثمان - حقوق الإنسان في الإسلام.

محمد الغزالي - الإسلام والاستبداد السياسي.

لاحظ أيضًا الدراسات الخاصة بالظلم الاقتصادي:

سيد قطب - معركة الإسلام مع الرأسمالية.

محمد مورو - دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع.

٢- المعسكر الاستعماري. ويضم كل المؤسسات الاستعمارية «قوى اليسار واليمين بكل اتجاهاتها»...

وهذا المعسكر يتميز ب-:

- وجود بعض التناقضات الثانوية داخلة.
- يطرح التفاوض كأسلوب لحل القضايا الوطنية وإسقاط شعار الكفاح المسلح ضد الاستعمار والصهيونية.
- ممارسة قمع الجماهير بأساليب متنوعة.
- ممارسة الغزو الفكري.
- مع ملاحظة أن هذا المعسكر يتصرف دائمًا كرد فعل لحركة الاتجاه الإسلامي.
- وأنه دوائر صغيرة بين المثقفين بعكس الاتجاه الإسلامي الذي يضم الأمة كلها تقريبًا.
- إن كل تراث الجهاد والنضال بلا استثناء قد قام به الاتجاه الإسلامي في طول تاريخنا القديم والمعاصر، وأتحدى من يأتيني باستثناء واحد.

وكل تراث الخيانة والمهادنة كان من الاتجاهات الأخرى والأمثلة أكثر

من أن تحصى.

* * *

يقول هيكل أيضًا:

إن نظام السادات قد استخدم الدين لتبرير سياساته.

إن نظام السادات قد شجع أو على الأقل أغضى الطرف عن الاتجاه الإسلامي ليقوم ذلك الاتجاه بتصفية الناصريين والشيوعيين.

والآن لنبدأ بمناقشة أفكار هيكل.

- استخدام الدين لتبرير سياسات النظام.

يتعمد هيكل أن يخلط بين مؤسسات الدولة الدينية مثل الأزهر والأوقاف وبين الحركة الإسلامية ليدفع القارئ دفعًا إلى اتهام الاتجاه الإسلامي بمهادنة النظام أو التبرير له.

وفي الحقيقة فإن محاولة السادات استخدام المؤسسات الدينية الخاصة للدولة، ليس بأمر جديد فقد استعمل عبد الناصر نفس المؤسسات في ضرب الإخوان المسلمين في الخمسينيات والستينيات، كما استخدمها الملك أيضًا لنفس الهدف.

وهكذا فإن استخدام السادات لها ليس شيئًا جديدًا يستدعي أن يركز عليه هيكل.

بل علينا أن نلاحظ أن السادات ذاته استخدمها في ضرب الاتجاه الإسلامي باعتباره الاتجاه الوحيد القادر تاريخيا وجغرافيا على مضايقة النظام والنضال ضده.

ولقد تم ذلك في كل حكم السادات وعلى سبيل المثال:

- ترويج مؤسسات الدولة الدينية والأزهر والأوقاف لفكره من الاتجاه الإسلامي اتجاه متطرف.

- محاولة طمس جوانب الإسلام الخاصة بحقوق الرعية في الحرية والعدل المساواة والتركيز على فكرة طاعة ولي الأمر.

- قيام تلك المؤسسات ذاتها باغتيال قانون الأحوال الشخصية السابق والإتيان بقانون جديد غريب ومشبوه...

وفي هذا الصدد فإننا نذكر المعارك التي خاضها كل من:

- الشيخ محمد الغزالي (مظاهرة جامع الفسطاط والتي اتجهت إلى مجلس الشعب المصري) وكان لها الفضل في إجهاض المحاولة الأولى لذلك القانون المشبوه.

- تنديد الشيخ: عبد الحميد كشك - عبد الرشيد صقر أحمد المحلاوي.. بذلك القانون ودخولهم في معارك مع مشايخ السلطة بسببه.

***

- تشجيع الاتجاه الإسلامي - محاولة التحالف معه - استخدامه في ضرب القوى السياسية الأخرى.

وهذه المقولات تثير ضحكنا وسخريتنا أكثر من أن تثير ضيقنا فضلاً عن غضبنا لأننا ندرك منذ الوهلة الأولى أن ترويج مثل هذه المقولات هي ممحولة مفضوحة ومكشوفة ولا تجد صدى لها بحكم مجافاتها للواقع الملموس.

- كما أن تلك التهمة ملتصقة تمامًا بالقوى السياسية الأخرى وخاصة اليسار ولا يمكن لأي مثقف أن يفصلها عن تلك القوى وعلى رأسها اليسار.

ولكن ينبغي لنا أن نضيف هنا مجموعة من الحقائق.

- فكيف يقوم السادات ونظامه بتشجيع الاتجاه الإسلامي وهو يدرك أنه الاتجاه الوحيد القادر تاريخيا وجغرافيا على النضال ضد النظام وهز أركانه.

- كيف يقوم السادات بتشجيع الاتجاه الإسلامي أو التحالف معه، مع العلم

بأن السادات شخصيا كان أحد أعضاء محكمة الثورة التي أصدرت أحكام الإعدام والمؤبدات وغيرها من الأحكام القاسية في عام ١٩٥٤ ضد الإخوان المسلمين.

يمكن لهيكل أن يقول إن ذلك كان من أجل ضرب الناصريين والشيوعيين.

ونكرر مرة أخرى أنه من غير المعقول أن يستخدم نظام ما أخطر قوة تعاديه وأكبر قوة تمتلك رصيدًا تاريخيا وتنظيميا لتصفية قوة أخرى لا تملك أي رصيد تاريخي أو جماهيري.

فالناصرية مجرد اتجاه عاطفي. والشيوعيون مجرد حلقات شديدة الضيق بين المثقفين.

كما أن مراكز القوى لم تكن تملك إلا رصيدا من القرف لدى الجماهير التي عانت منها طويلاً، ولم تكن ذات أثر إطلاقًا في الشارع السياسي. إلا أثر الشماتة فيها والعداء لها.

يبقى هنا سؤال. هل حدث صدام سياسي بين القوى السياسية في الجامعة مثلاً؟

والإجابة نعم.. وهذا أمر طبيعي مع إضافة شديدة في البساطة والوضوح وهو أن الاتجاه الإسلامي اصطدم هو في الجامعة بحكم أنه الاتجاه الجوهري للنضال في الجامعة اصطدم مع الناصريين والشيوعيين والساداتيين والغربيين بلا استثناء.

إن خطورة المسألة تأتي من أن هيكل ومعه كل أقطاب المدرسة الاستعمارية يروجون لتلك المقولة لهدفين:

- تضخيم حجم اليسار. والادعاء بأنه حركة جماهيرية مما يستدعي استخدام قوة سياسية أخرى ضدها.
- التغطية على كل الخيانات التي عانت منها الجماهير طويلاً.
- بدءًا من تحالف الشيوعيين مع الإنجليز في الحرب العالمية الثانية.

- ومرورًا بالاعتراف بإسرائيل وإدانة كفاح الإخوان ضدها.

- ومرورًا أيضًا بإدانة كفاح الإخوان ضد الإنجليز في القناة ١٩٥١ بدعوى أن القضية الاجتماعية والصراع الطبقي هما الأساس.

- ومرورًا أيضًا بخيانة اليسار لقضية الفلاحين ضد الإقطاع بدعوى أن الاستعمار هو الأصل (لاحظ التناقض بين النقطتين السابقتين في كلام الشيوعيين وانظر صحف الشيوعيين في نهاية الأربعينيات).

- ومرورًا أيضًا بحل الأحزاب الشيوعية واندماجها في الاتحاد الاشتراكي سيئ السمعة في الستينيات.

- ومرورًا أيضًا بالتطبيل لعبد الناصر في ضرب الإخوان.

- ومرورًا أيضًا بالترويج لسياسة السادات في بداية حكمه (لطفي الخولي - الطليعة - مدرسة السادات السياسية).

وفي النهاية فإن الاستعمار قد استخدم اليسار وكذلك عبد الناصر وبعده السادات.

- يلاحظ هنا أن السادات سمح لليسار بحزب علني هو (حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي) الذي يضم ضمن ما يضم الناصريين والشيوعيين في حين لم يسمح للاتجاه الإسلامي بأي شكل علني.

- كما سمح السادات لليساريين بالانتشار في المؤسسات الصحفية والثقافية كما استوزر عددا منهم نذكر منهم على سبيل المثال: محمد صبري عبد الله، وفؤاد مرسي.

- والآن فإن المسألة تتضح فهيكل يقلب الأمور على رأسها تمامًا ويقرر عكس الحقائق على طول الخط.

***

وتبقى نقطتان أوردهما هيكل وينبغي لنا الرد عليه:

الأولى: أن الاتجاه الإسلامي اكتسح الانتخابات سنة ١٩٧٨ بدعم من النظام.

وفي الحقيقة فإننا ننبه هيكل إلى أن الاتجاه الإسلامي يكتسح الانتخابات دائمًا برغم أنف النظام سواء كانت انتخابات نظيفة أو نصف نظيفة أو حتى ربع نظيفة.

- اكتسح الاتجاه الإسلامي الانتخابات في الأعوام: ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩. وليس ٧٨ فقط كما يدعي برغم التدخل من الإدارة وأمن الجامعة وبرغم الشطب والاعتقالات والمضايقات كما أن الاتجاه الإسلامي اكتسح انتخابات عام ١٩٥١ (حسن دوح).

وعلى هذا فالاتجاه الإسلامي اكتسح الانتخابات برغم أنف النظام.

الثانية: مسألة أن حوالي ٤٠٠,٠٠٠ قاموا بالصلاة في ميدان عابدين. وهيكل يقول لا يعقل أن يتم تجمع مثل هذا العدد بغير رضا النظام.

والحقيقة التي تنبه لها هيكل أن العدد وصل إلى المليون وقد قاموا بالصلاة إحياء لسنة رسول الله ﷺ. ولم يكن النظام قادرًا على منعها.

كما أنه كيف لنا - كمثقفين - ألا نستطيع التمييز بين مكسب تحققه حركة نتيجة نضالها وكيف نقلب الأمور فجأة فيصبح إغضاء طرف من النظام. أو تشجيعًا منه.

*** ملاحظة أخيرة:**

إن الصدام بين السادات والاتجاه الإسلامي كان مستمرًا ولم ينقطع: حادث الفتية ٧٤ - التكفير والهجرة ٧٥، ٧٦، ٧٧. قضية الجهاد الأولى ٧٦ والثانية ٧٨، غير آلاف أخرى من المعتقلين دائمًا من الاتجاه الإسلامي.

◆◆◆